الإيحاء والتصوير

في خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام

"دراسة في البنى الأسلوبية"

المدرس الدكتور
جنان محمد مهدي
جامعة بغداد - كلية التربية للبنات

الإيحاء والتصوير في خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام "دراسة في البنى الأسلوبية"

المدرس الدكتور
جنان محمد مهدي
جامعة بغداد ـ كلية التربية للبنات

المقدمة:ـ

ثمة شخصيات تسمو وترقى قبل أن تولد، لتكون شموساً متوقدة تنير دروب البرية عبر العصور، ولعل أولّى تلك الشخصيات وأخصها بتلك المزية هم آل بيت النبوة عليهم السلام جميعاً، الذين اختصهم ربّ العزة بجعلهم حجج الله في أرضه، فقد كانوا عليهم السلام ومنهم السيدة الزهراء (سلام الله عليها) معجزات لا نظير لها كما أعجز الله عز وجل الخلائق بمعجزته الخالدة (القرآن الكريم) فعجزوا عن إتيان مثله أو آية منه، وكما أن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا تنقطع أسراره كذلك أسرار وآفاق آل البيت الذين نختص شخصية الزهراء البتول عليها السلام منهم ونحاول فتح باب من أبواب أسرارها التي استودعها الله عز وجل.

لذا فإن فكرة هذا البحث هي إبراز جانب من جوانب بلاغة الزهراء عليها السلام وعلمها، وقدرتها البليغة على جعل الكلمات ناطقة بلسان حالها ومعبّرة بظلالها عن قدرة عالية في استثارة النفوس والأرواح وإخراجها من غفلتها وسهوتها، فكانت أساليبها التي وظّفتها سبيلاً لتلك الغاية، متنوعة تنبض بإيحاء دلالي يظهر في تنوع البنى والتراكيب التي تألف منها كلامها عليها السلام، ولا عجب أن بلاغتها وثقافتها كانت موهبة فطرية تنم عن قوة شخصيتها وأسلوبها الذي بان وتجلى في رصفها الألفاظ والتراكيب ذات الإيحاء المعبّر عن

الطاقات والدلالات الكامنة في البنى الأسلوبية التي انتظمت في عباراتها البليغة.

وتبعاً لذلك كان هذا البحث محاولة لاستنطاق نصوص خطبة الزهراء عليها السلام وما حملته من دلالات خفية ذات بُعد دلالي عالي الهدف سامي الغاية، ووفقاً لما تقدم فقد انتظم البحث في مباحث ثلاثة، سبقت بتمهيد عن أسلوب السيدة الزهراء عليها السلام في الخطبة بمعرفة ماهية الأسلوب وتعريفه وبعده الجوهري في تشكيل النص، كما شمل الحديث عن أهم مميزات أسلوب الزهراء عليها السلام وقدرتها التصويرية.

المبحث الأول وهو بعنوان: **(أسلوب الخطاب النفسي ولغته)** تناول الحديث عن الخطاب النفسي الذي يعكس حال المخاطب ويعبر عن أفكاره وبراعته في الحوار المؤثر ووسيلته لإيصال الأفكار المحركة للعواطف والمشاعر، كما شمل الحديث عن أسلوب الزهراء عليها السلام الذي استطاعت بفضل دقة اختيار ألفاظه أن تثير حواس المتلقي وتدفع به إلى التفكر والتعقل فجمعت بليغ اللفظ وكمال العقل في التأثير.

أما المبحث الثاني وهو بعنوان: **(أسلوب الجدل والاحتجاج)** فقد كان الحديث فيه عن أسلوب الزهراء عليها السلام العقلي الحواري المنطقي النابع من فكر متفرد في امتلاك وسيلة الجدل المنطقي التي تستند إلى عبارات تحمل في طياتها قوة إيحائية دالة على معرفة واعية وقدرة أسلوبية ممزوجة بدليل لا يقبل النقاش والجدال هو القرآن الكريم.

في حين كان المبحث الثالث والأخير وهو بعنوان: **(أسلوب التهكم والذم)** مخصصاً للحديث عن الأسلوب النقدي الساخر واللاذع للمنافقين ووضاعة مواقفهم باستعمال الأسلوب الاستنكاري الذي تتنوع فيه أساليب اللغة

وصيغها من تقريع وتوبيخ وتعجب إنكاري، إذ كانت الغاية منه التنبيه والتحذير والحث على عدم مجانبة العدل والتسويف في أوامر البارئ عز وجل ونواهيه.

وختم البحث بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التي توصل البحث إليها.

التمهيد:ـ

تمتلك الألفاظ طاقات تعبيرية وتصويرية لها تأثيراتها البالغة على المتلقي، وتنتظم تلك الألفاظ في تراكيب متنوعة تختلف تبعاً لقصد المخاطب وأسلوبه في الخطاب الذي يتميز به عن غيره، فالأسلوب هو ((طريقة تأليف الألفاظ للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير))[١] أو طريقة التفكير والتصوير والتعبير[٢]، وتتباين الأساليب تبعاً لطبيعة المعنى والغرض وجمال النسق وروعة الأداء وقوة التأثير[٣].

فثمة ألفاظ ترسم صورة الموضوع لا بجرس أصواتها الذي تلقيه في الآذان بل بظلالها وإيحاءاتها الخاصة التي لا يلمحها ويلحظها إلا الحس البصير، حين استدعاء صورة مدلولاتها الحسية[٤]؛ ذلك لأن للألفاظ أشكالاً ومعاني خفية لا يظهرها ويجليها إلا التعبير والتركيب القادر على عكس تلك المعاني والإيحاءات الكامنة بوساطة النظم الحسن.

فالمعاني التي تحملها الألفاظ إنما هي ((نتائج العقول وولائد الافهام وبنات الأفكار))[٥]؛ ذلك لأن التأثير في النفوس ينبع من رشاقة الأسلوب وجمال العبارة وقدرة مبدعها على التأثير والإقناع، ولا يتم كل هذا إلا بانتقاء أجزل الألفاظ والعبارات واقدرها على الإيحاء والتعبير عن مكنونات النفس وحالاتها الشعورية والنفسية.

إن القدرة التصويرية للغة والإيمان بالتأثير الروحي للكلمات والعاطفة

وظلال الحزن الممتد من أغوار النفوس، له أثر في أسلوب وبنى مبدع النص وطريقة عرضه، فهي أن لم تترك في النفس حزناً فستترك هيبة وخشية وتوجساً ليس بينها وبين الحزن بون بعيد، فالمعاني ترتسم وتتفاعل في نفوس آدمية[٦] مثيرة باللغة نهضة نفسية روحية تدفع بالعقل للاستيقاظ والتفكر والتدبر، كما أن قوة الإيحاء والتصوير في كلام صاحب النص تعتمد في الأساس على قدرته الإبلاغية وبناه الأسلوبية وقابليته على توظيف وتطويع الألفاظ والعبارات لتكون خدماً لمراده وقصديته.

إذن فأسلوب مبدع النص أو صاحبه هو البؤرة الأساس ومحور الارتكاز في عملية الخطاب والإبلاغ، فمهارته وقدرته على إظهار الطاقات الإيحائية للألفاظ ودلالاتها ومحاولة إيصالها إلى متلقيها، تعد من المزايا التي تحسب له وتميزه عمن سواه.

بالعودة إلى استنطاق أسلوب الزهراء عليها السلام في خطبتها البليغة، نجد أن بنى الألفاظ في عباراتها وأسلوبها ينبض بإيحاء دلالي صادر عن أدبية عالية وثقافة فكرية موسوعية؛ ذلك لأنها جعلت من أساليب اللغة وبناها أداة تعبيرية ووسيلة افهامية لإيصال رسالتها إلى الألباب والعقول.

فكانت عباراتها الموجزة وهي المزية الظاهرة والسمة الطاغية لها تزيد من كمال وبلاغة كلامها، فضلا عن دقة اختيار البنى ذات الدلالة المناسبة للمشهد المشحون بظلال الظلامة، إذ أضفت دلالات خفية جعلت الفكر مشغولاً بها.

إن ذكاء الزهراء عليها السلام وبراعتها العقلية والذهنية تجلت في اختيارها انتحاء أسلوب القرآن الكريم في قِصَر الفِقر للخطبة وتنوع إيقاعاتها، وامتازت بالسجع والتكرار والتناسق الفني، فكانت دعوة للاهتياج النفسي والأثر الحسي لا تحقق إلا بما تؤديه ألفاظها وأساليبها الفنية من قوة التعبير والتصوير؛

ذلك لأنها تخاطب العقول وتتجه إلى النفوس تعميقاً للتأثير وإنفاذاً بموسيقى الألفاظ التصويرية إلى أغوار النفوس.

كما تجلت براعتها في جعل الألفاظ ناطقة بلسان حالها معربة بظلالها وقوة إيحاءاتها عن تصوير مرارة آلامها وحزنها وبثها ومظلوميتها، فكانت ألفاظها فصيحة مستثيرة للوجدان بقوتها التي حملت شرراً كالقصر[٧] في آذان وأذهان متلقيها، وغدت أساليبها سياطاً ناطقة تضرب ضمائر الناس لتصحّيهم من غفلتهم وسِنتهم، وهذا يعني أن الألفاظ لم تكن وعاء لمعنى دقيق فحسب، بل مصدراً لصورة لها أبعادها وظلالها[٨].

المبحث الأول

أسلوب الخطاب النفسي ولغته

لا يخفى ما للخطاب النفسي ولغة وأسلوب المخاطب من أثر في نفوس متلقيه، باعتبار أن وظيفة النظام اللغوي تبليغ أغراض المتكلم للسامع[٩]، وتبعاً لذلك تتباين أساليب المخاطب في خطابه، فلكل موقف خطاب خاص به ولكل مقام مقال، لذا يكون أسلوب المخاطب هو الموجه لمثل هذا الخطاب النفسي.

فالخطاب إذن مفتاح شخصية المخاطب والمعبّر عن سماتها وأفكارها، فهو الكاشف عنها وهو المرآة العاكسة لثقافة المخاطب الفكرية وبراعته الحوارية وقابليته التصويرية، بوصف الأخيرة وسيلة المخاطب في تمثيل العواطف والأفكار التي تختلج في الصدور، ليكون التصوير صنو اللغة وأداتها المعبّرة.

ولغة الخطاب أو عمارة النص الخطابي المؤلف من مجموعة الأفكار والموضوعات والأساليب المختلفة الصياغة[١٠] تمتلك دلالات إيحائية تعد الظلال الذي تلقيه ألفاظ النص وهي في واقع الحال خفية يظهرها سياق الحال

أو ظروف وملابسات النص والمقام الذي ألقي فيه الخطاب.

وبما أن أسلوب الخطاب وبخاصة النفسي منه مرتبط بدلالة بنى الخطاب نفسه وأساليب المخاطب، فإن قوة إيحاء النص وقوة التصوير تكمن في قدرة المخاطب وقابليته على إثارة متلقيه عبر بث بنى ذات طاقات إيحائية لها القدرة على التعبير عن أقصى حالات النفس الشعورية بأقل ألفاظ تمتلك كثافة معنوية معبّرة.

ولعل خطاب الزهراء عليها السلام كان نموذجاً فريداً في قوة الإيحاء والتصوير، ويكمن تفرده في قدرتها ودقتها في اختيار الألفاظ ذات الوقع المؤثر في النفوس والعقول، وإثارتها حواس متلقيها الذهنية والنفسية، فاختارت أن تبدأ باستثارة مشاعر الناس بأنة كانت بمثابة اللغز المحير الذي كان له بعده النفسي المؤثر، فمست مشاعرهم وأحاسيسهم وحملت هذه الأنة من المعاني الجمة التي أجهش الناس لها بالبكاء.

إن هذا الأسلوب النفسي كان كفيلاً بشدّ وجذب واستمالة نفوس متلقيها فيقبلوا على الاستماع للخطاب، ولقد تنوع أسلوبها النفسي لتهيئة النفوس الغافلة فاستهلت خطبتها بأسلوب نفسي يستند إلى الموعظة والتذكير فذكرت وذكّرت بالنعم الإلهية وأصول العقيدة بركنيها الأساسيين وهما التوحيد والنبوة، والمقصود بالتوحيد هنا التوحيد الفطري الذي جُبلت عليه النفوس، المشفوع بالتفكير وإعمال العقل بعد التدبر والتعمق في الغاية من الخلق والإيجاد الموصل إلى التوحيد النظري بالنظر في الآفاق والآيات والأنفس[١١]، ذاكرة ذلك بقولها:

((الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ الآء أسداها، وتمام منن والاها..))[١٢].

ثم أشارت إلى فلسفة التوحيد والشهادة بقولها:

((وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأنار في التفكر معقولها..))[١٣].

وكانت غايتها الإيحاء للناس أن هذه ((الكلمة عندما تنطلق من لسان الإنسان المؤمن فلا بد لها أن تنطلق من عمق الإخلاص في كل ما ترجع إليه من معانٍ، وأن تعيش القلوب أسرارها كلها وآفاقها كلها وامتدادها كله فيما يتصل به الفكر بعضه مع بعض، وأن ينطلق التفكير في حركة عقلية من أجل أن يتعرف الأسس العقلية التي تثير في النفس عمق معنى التوحيد)) [١٤]. فالزهراء عليها السلام بأسلوبها الوعظي هيأت النفوس واستمالتها للتدبر والتفكر والعودة إلى التماس سبيل الله والبعد عن الشطط والغاية هنا غاية تربوية وهي تربية النفس وتهذيبها.

ثم انتقلت إلى أسلوب آخر من أساليب الخطاب النفسي وهو أسلوب التنبيه والإرشاد، فنبهت إلى تنزيه الخالق عز وجل عن كل الصفات والأفعال البشرية و((تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الإفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان)) [١٥]، وأشارت لذلك بالقول:

((الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته))[١٦].

إن غاية الزهراء عليها السلام في أسلوب خطابها كانت غاية إفهامية، فامتزج أسلوبها بين اللفظ والعقل لتصل إلى تلك الغاية، لذا كان خطابها مشحوناً ببنى قادرة على الإيحاء والتصوير لترسم مشهداً صورياً ينتقل أمام أنظار متلقيها ممزوجاً بفلسفة عقلية فكرية عن الغاية من خلق الكون والأشياء، مشيرة لذلك بالقول:

((ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته، وإعزازاً لدعوته))[١٧].

ثم انبرت عليها السلام إلى بيان العلة من الخلق والتبصير بذلك لتفلسف الركن الثالث من أصول العقيدة وهو المعاد والحساب، فقالت:

((ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده من نقمته، وحياشه لهم إلى جنته))[١٨].

فالزهراء عليها السلام استطاعت بدقة اختيارها لهيكلة هندسية قائمة على التكثيف والإيجاز في البنى، الإحاطة والشمول بفلسفة الخلق والوجود وعلتهما بأسلوب ينأى عن الملل والسأم على الرغم من كثرة التكرار إلا أن ذلك الأسلوب كان باعثاً على العظة والتذكير والوقفة والتأمل.

المبحث الثاني

أسلوب الجدل والاحتجاج

يعد أسلوب الجدل والاحتجاج واحداً من أهم الأساليب التي يستعملها العقل البشري في محاوراته ومخاطباته، والقصد منه ((الإتيان بالدليل والحجة والبرهان في إثبات الحق وإلزام الخصم بها))[١٩] في أسلوب حواري سلمي بعيداً عن العنف باللجوء إلى لغة الحوار المخاطب للعقول بوساطة الاستدلال المنطقي.

وقد عرّف الجرجاني الجدل بأنه: ((القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان أو هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة))[٢٠]،

فهو إذن سلاح فعّال هجومي ودفاعي في آن واحد[٢١]، إذ يثير في النفوس حركة داخلية على الرغم من شدة أسلوبه، تدفع بها إلى الاقتناع والإذعان تبعاً لمنطقية الحجج والبراهين.

لقد برعت الزهراء عليها السلام في استعمال وتوظيف هذا السلاح في خطبتها البليغة، إذ ألقت حججها على العقول لتدركها وتعود إلى الطريق الحق القويم، مخاطبة إياها بقولها:

((أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية أستخلفها عليكم، كتاب الله الناطق والقرآن الصادق))[٢٢].

وكان سبيل الزهراء عليها السلام في أدلتها وحججها استدلالها بالحجة الكبرى وهي القرآن الكريم، إذ إن حجج آيات القرآن الكريم وهي غاية البلاغة والفصاحة والإعجاز البياني، تعد من أقوى وأدل البراهين المثبتة للقصد والغاية، نظراً لامتلاك بُناها قوة وقدرة لا تضاهى على إفحام كل الخصوم بمختلف مستويات تفكيرهم وبلاغتهم.

لذا فالمتأمل لأسلوب الزهراء عليها السلام في جدلها واحتجاجها يجد أن أسلوبها مشحون بالشدة والقوة المتأتية من تنوع الأساليب واختيار أكثرها تعبيراً، فنجدها تقول:

((فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم ونهاكم عنه، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء))[٢٣].

فتضمينها القرآن الكريم في أسلوب خطابها يثريه ويمده بإيحاء دلالي يهز العقول ويدفع بها إلى التعقل والعودة، التي أن خالفتها دفعتها إلى مهاوي الضلالة والخسران.

فكان الاستدلال بالقرآن الكريم سبيلها لإثبات حقها ودليلاً في الوقت نفسه على بطلان دعوى خصومها وفق المنطق والبرهان وعلى ضوء الأدلة الواقعية، وقد ذكرت ذلك بقولها:

((وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون، أفلا تعلمون))[٢٤].

ولم يكن الاستدلال بالقرآن الكريم وحده أسلوب الزهراء عليها السلام في حجاجها بل اتخذت أسلوب الاستدلال العقلي والمنطقي أيضاً ووظفته في تثبيتها الإمامة وتأكيدها لبيت النبوة وتحقيق الحق لأهله بأسلوب تصويري بليغ يحمل بين طياته إيحاءات لتلك القضية، إذ قالت:

((فأنقذكم الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وآله، بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني بِبُهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نَجَمَ قرن للشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه))[٢٥].

فهي عليها السلام وجهت دعوة حقيقية للألباب بإلقائها الحجج المنطقية التي كانت دلائل واضحة ومصورة لزيف الاعتقاد والاعتناق لغامض السبيل الداعي لمجانبة الحق والعدول إلى الباطل.

المبحث الثالث

أسلوب التهكم والذم

يعبّر هذا الأسلوب عن الأغراض النفسية، إذ يميز به الخداع والمراء والكذب والنفاق وكل الأمراض النفسية التي تصاب بها النفس البشرية، فهو ((هجوم متعمد على شخص لغرض سلبه كل أسلحته وتعريته من كل ما يتخفى فيه ويتحصّن وراءه))[٢٦].

ويمكن القول إن هذا الأسلوب في اللغة يعد من الأساليب النقدية، إذ يحكم بوساطته على شخصية ما بصفة من الصفات الذميمة نتيجة اتصافها بمثل تلك الخصال الداعية إلى السخرية والذم. وقد تنوعت طرائق التعبير عنه في أساليب اللغة فجاءت بصيغة التقريع أو اللوم أو التوبيخ أو التعجب الإنكاري وغيرها، وتضفي تلك الأساليب أبعاداً دلالية على النص لتصوّر وضاعة وسخرية الموجه له مثل هذا الأسلوب، لذا فإنها تشير إلى تأنيب وتصغير ونقد لاذع للضمائر والنفوس المتصفة بصفات تنبو عنها النفس السوية.

فكان هذا الأسلوب سلاح الزهراء عليها السلام لتأز به النفوس الذاهلة وتكشف ستر العقول الغافلة عن الحق، المتبعة للسبل المتفرقة، اللابسة لباس الدين وهي بعيدة كل البعد عن الطريق القويم، بل إنها تضمر النفاق وتدعو إلى الشقاق، فتراها تقول:

((فلما اختار الله لنبيه صلى الله عليه وآله دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبع خامل الأقّلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر على عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه، هاتفاً بكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحشمكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم))[٢٧].

فكان هذا الأسلوب لتصوير حال المنافقين الذين فضحت زيفهم بأسلوب بلاغي كنائي يتباين فيه البلغاء؛ لأنه يحتاج إلى اللمحة الذكية التي تعتمد معرفة دلالات الرموز، وهي في هذا كله تبث بنى تحمل دلالات خفية عن ضعف الدين وهزال لباسه الذي تجلبب به أولئك المنافقين.

وقد تنوعت وسائل التعبير وصيغه في خطاب الزهراء عليها السلام لتوظيف أسلوب

التهكم والذم، فاستعملت التقريع واللوم مصوّرة ذلك بأسلوب شديد اللهجة ممتزجاً بتضمين الأمثلة والحكم التي تضرب لمن يدعي شيئاً ويريد غيره[٢٨] ويعمد إلى الخداع بغواية الشيطان له سعياً للقضاء على السُنّة والولاية بدعوى الوقاية من الفتنة، فتراها عليها السلام تقرعهم بتوظيف بنى موحية لمكرهم وخديعتهم عبر تصوير حالهم تلك بما تمجّه النفوس وتستهجنه، مشيرة لذلك بقولها:

((فهيهات منكم وكيف بكم، وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون، أم بغيره تحكمون، ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[٢٩] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣٠]))[٣١].

ثم أردفت قائلة:

((ثم أخذتم تورون وقْدَتها، وتهيّجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإخماد سنن النبي الصفي، تشربون حسواً في ارتغاء))[٣٢].

وتتمثل مهارة الزهراء عليها السلام وقدرتها الأسلوبية في توظيف صيغة الاستفهام التي كانت وسيلتها لذم فعلهم المنكر وحكمهم بخلاف كتاب الله عز وجل وأوامره الظاهرة، فترصع عليها السلام أسلوب خطابها بآيات من القرآن الكريم تقتبسها لتلزمهم بالاحتكام إلى الحق والعقل وتوبخهم باستعمال صيغة الاستفهام بحرف الهمزة الذي يخرج إلى معانٍ بلاغية غير الاستفهام الحقيقي[٣٣] تفهم من سياق الكلام والمقام ليكون أداتها للتعجب والتوبيخ بأسلوب تأنيبي يوحي بالذم والإنكار لمن يريد غمط حقها في الإرث، فتراها تقول:

((وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون! أفلا تعلمون))[٣٤].

ونلحظ قوة التصوير في أسلوب الزهراء عليها السلام حين أظهرت ألمها وتوجعها من خديعة القوم ونفاقهم وأذاهم لبيت النبوة وحيادهم عن الطريق المستقيم، وصبر آل البيت واحتسابهم على الأذى الذي صورته الزهراء عليها السلام بجريمة من قُطِعَت أعضاؤه ونبت سنان الرمح في أحشائه، فأعطت بتصويرها تلك الصورة إيحاءات عن بشاعة الموقف وعظم المأساة بأسلوب تهكمي ساخر لائم في الوقت ذاته مجسدة عظم المشهد بجزالة الألفاظ وقوتها، حتى لكأنها ترمي بسهام تصيب بها كل مخادع ماكر، بقولها:

((وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء، ونصبر منكم على مثل حز المدى، ووخز السِنان في الحشا))[٣٥].

فكانت عبارات الزهراء عليها السلام تمتلك من الإيحاءات والدلالات ما تحرك به النفوس بتصويرها الأذى النفسي الذي تحملته عبر صور نابضة بالحركة لتثير العواطف والأحاسيس بتوظيفها التكثيف الدلالي للعبارات المصورة لذلك الأذى.

الخاتمة:ـ

بعد هذا التجوال في رحاب الخطبة البليغة للسيدة الزهراء عليها السلام واستنطاق نصها وأساليبها التي وردت بها، نختم البحث بجملة نتائج ندرجها كالآتي:

١- اختارت الزهراء عليها السلام اللفظ المعبّر الموحي ببلاغة عالية صادرة عن وعي وفكر قل نظيره ومثيله، فارتقت بأسلوبها وفصاحتها إلى درجة البلغاء؛ إذ جعلت الألفاظ ناطقة معبّرة على الرغم من الموقف الذي ينأى فيه

العقل عن التعقل والتدبر، فجاءت بجمل وعبارات قمة بالحكمة والعلم.

٢- إن تنوع الأساليب في الخطبة يومئ إلى قدرة ذهنية مذهلة في رقي التفكير النفسي؛ إذ كانت اختياراتها عليها السلام لأساليب الوعظ والإرشاد باعثاً لصقل النفوس وتخليصها من شوائبها، كما أن فيه إشارة إلى عمق التفكير اللغوي الذي ينتقي ما يناسب المقام من مقال.

٣- برعت الزهراء عليها السلام بمسألة الاستدلال النقلي والعقلي، وهو ما يشير إلى ثقافتها الموسوعية؛ إذ استدلت بآيات القرآن الكريم ليكون حجة قوية لا تقبل الشك في الحجاج، كما أنها أذهلت سامعيها بقدرتها على الاستدلال العقلي حين قدمت فلسفة واضحة للعلة والمقدمات مشفوعة بالدليل النقلي.

٤- قادت الزهراء عليها السلام ثورة هادئة لتصحيح الأفكار والرؤى ووضحت بأساليبها اللغوية البلاغية المتنوعة رسالة افهامية تصحح بها مسار الخلافة الحقة.

٥- عبّرت الزهراء عليها السلام بأساليبها عن رسالتها الفكرية حين صوّرت ما تبغي إيصاله عبر تصويرها بالألفاظ ذات الدلالات الرمزية فخاطبت العقول بأسلوب كنائي منسق قل نظيره في خطبة ارتجالية عالية الفصاحة متنوعة البيان.

هوامش البحث

(١) الأسلوبية والبيان العربي / د. محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون ٤٢.

(٢) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) ينظر: المصدر نفسه الصفحة ٥٥

(٤) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم (دراسة تحليلية) / د. جبير صالح حمادي ٩٠.

(٥) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ٣٣.
(٦) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم ١٧٩
(٧) ينظر: قبس من نور فاطمة عليها السلام / الشيخ حسن الحائري ٢٨٠
(٨) ينظر: التعبير الفني في القرآن / د. بكري شيخ أمين ١٨٣
(٩) ينظر: مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية / د. بان الخفاجي ١٥
(١٠) ينظر: البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي / د. محمود البستاني ١٦٥
(١١) ينظر: فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد / محمد كاظم القزويني ٢٤٣- ٢٤٤
(١٢) الاحتجاج / احمد بن علي الطبرسي ١ / ١١٣
(١٣) المصدر نفسه ١/ ١١٣
(١٤) شرح خطبة الزهراء عليها السلام / محمد حسين فضل الله ٢٦
(١٥) الحواميم السبعة (دراسة تحليلية فنية) / د. طالب عويد الشمري ٢٣.
(١٦) الاحتجاج ١/ ١١٣
(١٧) الاحتجاج ١/ ١١٣، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٣٩.
(١٨) الاحتجاج ١/ ١١٣، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٣٩.
(١٩) الحواميم السبع ١١٢
(٢٠) التعريفات ٣٣
(٢١) الحواميم السبع ١٠٨
(٢٢) الاحتجاج ١ / ١١٣ – ١١٤، أعلام الهداية فاطمة الزهراء عليها السلام (سيدة النساء) / لجنة التأليف / المجمع العلمي لأهل البيت ١٣٧
(٢٣) الاحتجاج ١/ ١١٤، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٥٦
(٢٤) الاحتجاج ١ / ١١٥ – ١١٦، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٩٣
(٢٥) الاحتجاج ١ / ١١٥، أعلام الهداية ١٣٩، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٧٧
(٢٦) الحواميم السبع ٩١
(٢٧) الاحتجاج ١ / ١١٥، فاطمة الزهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد ٢٩١
(٢٨) ينظر: فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٩٩
(٢٩) الكهف ٥٠
(٣٠) آل عمران ٨٥
(٣١) الاحتجاج ١/ ١١٥، أعلام الهداية / فاطمة الزهراء عليها السلام ١٤٠
(٣٢) الاحتجاج ١ / ١١٥، أعلام الهداية / فاطمة الزهراء عليها السلام ١٤٠

(٣٣) ذكر بعض النحاة أن الهمزة قد تستعمل في غير معنى الاستفهام فتخرج إلى معانٍ أخرى هي: التسوية، التقرير، الإنكار، التوبيخ، التهكم، التعجب.. وغيرها وأنها تختص دون غيرها من أدوات الاستفهام بتلك المعاني، ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين / د. قيس اسماعيل الأوسي ٣٤٦

(٣٤) الاحتجاج ١ / ١١٥ - ١١٦، أعلام الهداية / فاطمة الزهراء عليها السلام ١٤٠.

(٣٥) الاحتجاج ١ / ١١٥، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٩٣.

قائمة المصادر والمراجع

♦ القرآن الكريم

- **الاحتجاج** / أبو منصور احمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، دار المرتضى: بيروت، ط ١ / ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- **أساليب الطلب عن النحويين والبلاغيين** / د. قيس اسماعيل الأوسي، بيت الحكمة: جامعة بغداد، د. ت.

- **الأسلوبية والبيان العربي** / د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. محمد السعدي فرهود، د. عبد العزيز شرف، الدار المصرية اللبنانية: مصر، ط ١ / ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

- **أعلام الهداية فاطمة الزهراء عليها السلام (سيدة النساء)** / لجنة التأليف، المجمع العلمي لأهل البيت: ايران، ط ٢ / ١٤٢٥هـ.

- **البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي** / د. محمود البستاني، دار الفقه للطباعة والنشر: ايران، ط١/١٤٢٤هـ.

- **التصوير الفني في القرآن الكريم (دراسة تحليلية)** / د. جبير صالح حمادي، مؤسسة المختار: القاهرة، ط ١ / ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

- **التعبير الفني في القرآن** / د. بكري شيخ أمين، دار الشروق: القاهرة، ط ١ / ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

- **التعريفات** / السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، المطبعة الخيرية: مصر، ط١ / ١٣٠٦ هـ.

- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** / الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف: مصر، د. ت.

- **الحواميم السبع (دراسة تحليلية فنية)** / د. طالب عويد الشمري، سلسلة الإصدارات العلمية – المركز الوطني لعلوم القرآن والتراث الإقرائي: بغداد، ط ١ / ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

- **شرح خطبة الزهراء** عليها السلام / السيد محمد حسين فضل الله، مطبعة باقري، المركز الإعلامي، ط ١/ ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.

- **فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد** / السيد محمد كاظم القزويني، مؤسسة النور للمطبوعات: بيروت، ط ١ / ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

- **قبس من نور فاطمة** عليها السلام / الشيخ حسن الحائري، دار الثقلين: بيروت، د. ت.

- **مراعاة المخاطب في النحو العربي** / د. بان الخفاجي، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١ / ٢٠٠٨م.